

العنف الكولونيالي والمقاومة في الجزائر خلال القرن 19م*

إن حركة الاستعمار الفرنسي كان هاجسها الاستراتيجي احتلال الأرض ومحتوياتها، كما كان همها المركزي اختراق الإنسان الجزائري في فكره وثقافته. ومن أجل ذلك وظفت فرنسا كل إمكانياتها العسكرية والفكرية للسيطرة على السكان الجزائريين الذين كانوا غير مستعدين للخضوع للمستعمرين. ولهذا كان اللجوء إلى العنف والتدمير أمرا ضروريا لتحقيق المشروع الاستعماري الاستيطاني في الجزائر.

كانت رغبة المستعمرين ترسيخ مبدأ العنف كضرورة حتمية لإيجاد هذا المشروع الذي في اعتقادهم يحقق السعادة للناس. وفي هذا السياق خلص "ألبر صارو" *Albert Sarraults*، وهوي دافع عن مشروعية الاحتلال، إلى استنتاج مفاده أن المبدأ الأساسي للاستعمار هو "أن يكون لفرنسا وجهان، وجه الحرية تجاه المبتروبول، وجه العنف والاستبداد في علاقتها بالمستعمرات...."¹.

وهكذا، لم تنمأ طل فرنسا في تنفيذ أهدافها منذ الوهلة الأولى من نزول قواتها على شواطئ الجزائر يوم 14 جوان 1830. فقد سارع "دوبرمون" إلى الاستيلاء على خزانة الجزائر الموجودة في القصبة آنذاك²، واعتقد بأن عملية الاحتلال ستكون سهلة التنفيذ. ولكنه اكتشفت بنفسه عندما رافق حملة إلى البليدة أن سقوط العاصمة لا يعني سقوط الجزائر، وأن قبائل الداخل ليست مستعدة للخضوع للفرنسيين، كما كشفت للجزائريين أن المقاومة ليست مستحيلة.

ولم يكن النهب مقصورا على الخزانة، بل تعداها إلى مختلف الميادين في البلاد بعد الاستيلاء عليها بالرغم من تعهد "دوبرمون" بشرفه، أن يحافظ على حرية الدين، وعلى أملاك السكان وتجارهم وصناعاتهم، وأن يحترم نساءهم وحرماهم (البند الخامس).

كان الجميع يظن بأن أمة متحضرة مثل الأمة الفرنسية لا يمكن أن تنكث العهد، ولكن سرعان ما انتشر الجيش الفرنسي في مدينة الجزائر، وبدأ يعث فيها فسادا، وينهب الديار، ويسلب المتاع، وينهك الأعراض، ويريق الدماء ويهدم المنازل والمخلات، ويخرب المساجد،

*أ. د محمد دادة- قسم التاريخ- كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية- جامعة وهران.

العنف الكولونيالي والمقاومة في الجزائر خلال القرن 19م أ.د. محمد دادة

قصد إدخال الرهبة على قلوب السكان حتى لا يقاموا ولا يثوروا. ولقد كان الجنود الفرنسيون، وهم يقومون بهذه الأعمال الفظيعة، يسرون على خطى قادتهم وضباطهم السامين، الذين كانوا يستولون- حسب قول حمدان خوجة- على الجوامع والقصور ويهدمونها بحثا عن الكنوز ويقصد الاستحواذ على الزراعي والثريات والحزف وغير ذلك من الأشياء الثمينة، التي نقل معظمها إلى مدينة "تولوز" بفرنسا³.

ونستشهد بمؤرخ الجيش الفرنسي في الجزائر، وهوبول أزان (P.Azan) يصف لنا حالة هذا الجيش خلال شهر جويلية سنة 1830، فيقول:

"إن الجنود ارتكبوا أعمالا تخريبية حول مدينة الجزائر، فخرّبوا الأحواش وقطعوا أشجار الحدائق، وخلعوا أعمدة المنازل لإيقاد النار، وثقبوا أنابيب المياه لملء أوانيهم منها، وهدموا سواقي المياه لكي يسقوا حيواناتهم، وتسببوا في تفجير مخزن للبارود، مما أدى إلى عدة جرحى، ولم يحافظوا حتى على صحتهم ونظافتهم..."⁴.

ويتحدث "روزي" عن باب الوادي الذي خرب قسما منه⁵، ومثله باب عزون الذي لقي المصير نفسه، فخربت كل قنوات المياه في العاصمة ونواحيها لغرض تشريب الخيل. ويشير الكاتب نفسه إلى أن الجنود في وهران خربوا الديار والمنازل الجميلة ليستعملوا خشب سقوفها لطهي الطعام⁶. ويذكر أن قبائل نواحي البليدة، قد نهبوا مثل القبائل التي نهبها وشردها الجنرال "برتيزان" (Berthezene) أثناء حملته في شهر ماي عام 1831.⁷

وفي سهل متيجة يصف "روزي" أيضا المأساة التي لحقت بأهل هذه المنطقة، عندما قام الجند بتكسير وحرق شجر الزيتون لتوسيع رحبتهم⁸. وكان "روزي" نفسه يتصور مستقبل الاستعمار الاستيطاني في أخصب أراضي المتيجة على الطريقة الآتية:

"سوف تلزمننا الحاجة إلى إبادة جميع السكان الساكنين في جبال بني مناد وشنوة..."⁹.

والحق أن ذلك لم يكن افتراضا، ففي عام 1832 قام الجنرال "دي روفيجو" (Le Duc de Rovigo)، الذي كان في السابق وزيرا للشرطة، بمجزرة رهيبة، إذ أباد قبيلة العوفية لجرد اتهم بعض أفرادها بالسرقة، في حين كان اللصوص ينتمون إلى قبيلة أخرى. وقد حدثت هذه الإبادة عندما اجتاحت فرقة عسكرية في الصباح الباكر على قبيلة العوفية في سهل متيجة، وفاجأهم الجنرال وهم نائمون في خيامهم، فذبحهم دون مقاومة من أحد. فكل الأحياء كان مصيرهم الموت دون تمييز بين الصغير والكبير وبين الذكر والأنثى. وبعد العودة من تلك

العملية الفظيعة، كان الفرسان يحملون رؤوس قتلاهم على أعالي رماحهم. وكان المنظر شنيعا، عندما أقدم الجنود على عرض غنائمهم في سوق باب عزون، وهي ملطخة بالدماء، وكانت أساوير النساء لا زالت عالقة بمعاصم مقطوعة، وأقراط آذان متدلية من قطع لحم، وقد قسم محصول ذلك البيع بين السفاكين. وفي 8 أفريل كان الإعلان عن تلك العملية الوحشية، وارتياح الجنرال ومسرتة¹⁰.

وفي تقرير اللجنة الإفريقية¹¹ حقائق صارخة عن الأعمال الوحشية التي قام بها الجيش الفرنسي في الجزائر، وخاصة عمليات التقتيل والإبادة الجماعية ضد السكان العزل. ولنستمع إلى بعض مقاطع تقارير هذه اللجنة حتى نبين بالأدلة القاطعة حقيقة الاستعمار الفرنسي وأهدافه الخبيثة. ذكرت اللجنة في تقويمها للوضع وفي "قصة الجزائر" ما يلي:

"إذا توقفنا قليلا عن الكيفية التي عامل بها الاستعمار الأهالي، فإننا نرى، أنها كانت متناقضة لا للعدالة وحدها، بل حتى للعقل، لقد هلكنا شروط الاستسلام وكلمة الشرف واعتدينا على حقوق الأقوام وعاداتهم ووجودهم وكيانهم، ثم بعد ذلك طالبنا الخضوع الكامل من سكان لم يخضعوا قط لأحد...

"لقد ألحقنا أملاك الأوقاف بالدومين، وصادرنا أملاك جماعة من السكان كنا قد وعدناهم باحترام أملاكهم، ووضعنا أيدينا على الأملاك الخاصة بدون تعويض، وزيادة على ذلك، أجبرنا الملاكين التي اغتصبت أملاكهم بهذه الطريقة على دفع مصاريف الهدم لديارهم وحتى لمساجدهم. لقد أجرنا ديارا من أملاك الدومين لأشخاص، وتقاضينا أثمان إجارتها مسبقا، وفي غد ذلك اليوم أمرنا بهدم تلك المباني بدون تعويض أصحابها، وانتهكنا حرمة الجوامع والمساجد والمقابر واقتحمنا المساكن على سكانها واعتدينا على شرفهم...

"نحن نعلم أن الحرب قد تفرض وضعاً صعباً، ولكن كان من الواجب أن نبحث عن طريقة تنفيذ عادلة قصوى لإخفاء ما فيها من الفسادة، وحكمنا بالإعدام بمجرد قتلهم بدون محاكمة على أناس أبرياء دون أن يتحقق من حريتهم، وقتلنا أشخاصا حاملين معهم أوراق الأمان وجواز المرور، وسفكنا الدماء مجرد قتلهم، وهم أبرياء، وأدخلنا رجال عظماء إلى المحاكم، وهم من أهل الصلاح في أقوامهم لأنهم أظهروا الشجاعة في فضح أعمالنا الوحشية. لقد وجدوا أنفسهم أمام قضاة ليحكموا عليهم، ورجال متحضرين لينفذوا فيهم الحكم. وبالجملة

أننا تجاوزنا الحدود في أعمالنا الوحشية في الجزائر، وادعينا أننا جننا لتمدينهم وتحريرهم، ومع ذلك نلوم أنفسنا على أننا لم ننجح معهم...¹².

ومن هنا تتضح أهداف الإخضاع بالعنف والقوة إلى درجة الإبادة منذ البداية، وبدأت الجولات المسلحة التي تعبر عن أصدق صعوبات الاحتلال، يوم أدرك الجزائريون نوايا فرنسا الاستعمارية، بعد سقوط الحكم المركزي، وظهور الفراغ السياسي، وعجز المدن عن صنع قيادة جديدة. وكانت القيادات الجديدة، قد ظهرت في الأرياف لمواجهة القوات الفرنسية وأمثال علي السعدي، والحاج محمد بن زعموم والحاج عبد القادر، وآخرين من زعماء الطرق الصوفية وزعماء الأعراس¹³.

ولكن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم طويل. فالفرنسيون أرادوا أن يخرجوا من الحصار والتوجه إلى مناطق النتيجة والوصول إن أمكن إلى البليدة عاصمة هذا السهل الخصيب. وبدأ "دوبرمون" هذه التجربة وكررها "كلوزال" الذي وصل إلى المدينة، وكررها بيرتيزين أيضا، وفي عهد روفيغور وقعت مذبحه العوفية الفظيعة. وهكذا تحدى العدو المقاومة الريفية، فكيف تعامل معها؟ وماذا كانت النتيجة؟

كانت ضرورة المقاومة جعلت القادة الفرنسيون يفكرون في الإبادة، التي أصبحت في اعتقادهم هي المخرج الوحيد لريح الوقت، وقد لاحظ باسي (Passy) مقرر ميزانية الحرب سنة 1835:

"أن في إفريقية هناك عائق للاستعمار يتمثل في أمر لا يمكن لأحد إزالته ألا وهو وجود قوم من الأهالي متعودين على الحرب لا يتحملون الظلم وهم مختلفون كثيرا عن الأوروبيين بعقائدهم وبماضيهم مخالفة لا تسمح لهم بربط علاقات طيبة مع أشخاص لا يرون فيهم إلا أعداءهم، جاؤوا لطردهم من أراضيهم التي تعد ملكا لهم"¹⁴.

وفي هذا الإطار نفسه، يؤكد "دوصاد" (Desade) في 19 ماي 1835، وهو يقترح طريقة في التوصل إلى سلب أراضي الجزائريين قائلا:

"بما أن الأراضي غير متوافرة، فيجب إبادة الأهالي قبل سلب أراضيهم، فمنذ خمس سنوات لم نستصلح من الأراضي سوى 2800 هكتار"¹⁵.

ويبدو أن استمرار المقاومة الريفية، شكل عائقا، أمام السلطات الاستعمارية التي كانت تريد المزيد من الأراضي فكان إرسال "بيجو" إلى الجزائر في ديسمبر 1840، دليلا على إصرار

الحكومة الفرنسية على تسريع تنفيذ مشروعها الاستيطاني، وهو الذي كان يعد الغزوطريقة حربية مشروعة وضرورية وذلك بتخريب القوى التي يقطنها السكان تحريبا تاما، حيث يقول: "يجب أن نقوم في إفريقية بحملة كبيرة شبيهة بما كان يفعل الأفرنج وما كان يفعل القوط..."¹⁶.

وفي الواقع أن "بيجو"¹⁷ انتقد الوسائل والأساليب التي طبقت سابقا، واعتبرها أساليب ضعيفة ضد السكان. ونشير إلى ما قام به "ديميشال" قبل أن يرم معاهدة عام 1834، حيث كان يعتبر أن اختطاف النساء وسلب المواشي من قبيلة الغرابة في سهل ارزيومفخرة¹⁸. وفي أثناء الحرب التي قامت من جديد بعد نقض المعاهدة دخل كلوزيل مدينة معسكر ونهب كل ما فيها، وأمر بتخريبها وتشريد سكانها في شهر ديسمبر 1835، يقول أزان بخصوص هذه الحادثة:

"ففي المدة القصيرة التي قضاها في هذه المدينة، قام بتدمير كل المؤسسات العسكرية التي كلفت الأمير جهودا كبيرة: مخازن الكبريت والبارود ومعمل الأسلحة وذخائر الحبوب الوفيرة (...). وصباح يوم 9 ديسمبر لما انصرفت القوات العسكرية، كانت النيران تلتهم أحياء المدينة المختلفة"¹⁹.

كان حكم "بيجو" يمثل الصورة القاسية، حيث تضمن مخططة عدة أساليب، من بينها الإضرار بالسكان في أرزاقهم كالحاصيل، والمزارع، والمواشي والأغنام والمطامير. وهكذا، ففي شهر مارس 1839، عندما كان عائدا من وهران وخارقا مواطن بني عامر والمسالم، قام بنهب 2500 رأس من الغنم و600 رأس من البقر كانت لقبيلة حراكتة لا لسبب أنه انتقم لمقتل أحد الشيوخ الموالين للفرنسيين²⁰.

ولما استأنفت الحرب من جديد، قام فالي (Valee) في 12 و13 مارس 1840، بتخريب ونهب كل مواطن الجهة الغربية للمنتيجة. وصاحب ذلك معاقبة كل القبائل الموجودة في منطقة البليدة وموازية وشرشال. وفي هذه الأثناء، كان "لاموريسيير"، يكتسح من جديد أراضي بني عامر والغرابة وبني يعقوب وأولاد خلفه في ناحية وهران، كما أن قبيلة ريغة في جنوب سطيف تعرضت للسلب والتقتيل لمجرد أنها أعلنت انضمامها إلى الأمير عبد القادر²¹.

وتعزز الموقف الرسمي الفرنسي المتشدد، بموقف القادة العسكريين المتعطشين للجرائم التي تعودوا عليها في الجزائر. ففي رسالة كتبها "سانت أرنو" (Saint-Arnaud) في ماي

1842، يفتخر فيها بكل وقاحة عن الأعمال الوحشية التي قام بها في ناحية وهران، وأنه سيبقى في هذه المنطقة حتى يخرب جميع القرى والمدن ويشرد سكانها²².

وفي هذا الوقت كان منتانيك (Montagnac) يفتخر بما قام به لاموريسيير من مذابح رهيبة في حق السكان العزل، وكان هو الآخر قد اتجه إلى سياسة التدمير حين دمر محيط السكان، وشرد الأطفال والنساء، وسلب الأغنام²³ وكان هونفسه يتحسر أحيانا من نتائج أعماله التي قام بها بسعيدة في 19 نوفمبر 1841، حيث يقول:

"إن هذه الأعمال تبعث في قلوبنا الحزن والأسى عندما نفكر في الوسائل الحقةرة التي كان عبد القادر ذلك الرجل العظيم يستعمله في تشييد مثل تلك المؤسسات"²⁴.

ولكن هذا لم يمنعه بعد سنة من تطبيق الأساليب نفسها في الإبادة. ففي 17 جانفي عام 1842 قام بنهب الحبوب والمواشي في ناحية معسكر، وبخطف الأطفال والنساء أيضا. ونجد الأساليب نفسها عند الجنرال بيدو (Bedeau) في نواحي الشلف، حيث استخدم هذا القائد العسكري العنف والتقتيل ضد قبائل المنطقة واختطف الأطفال والنساء، وأحرق المحاصيل، بالإضافة إلى سلبه المواشي من السكان²⁵.

وفي هذه الأثناء، كان "سانت أرنو" يكتسح قبيلة بني مناصر في ناحية مليانة، ويتبجح بأنه كان يدمر ويخرب المحاصيل، والأشجار المثمرة دون إطلاق النار إلا نادرا، حيث يقول: "لقد كانت حملتنا تدميرا منظما أكثر منها عملا عسكريا. ونحن اليوم في وسط جبال مليانة، لا نطلق إلا قليلا من الرصاص، وإنما نمضي وقتنا في حرق جميع القرى والأكوخ، وأن العدو يفر أمامنا سائقا قطعان غنمه..."²⁶.

ويضيف، وهو يؤكد على وحشيته المفرطة قائلا: "إن بلاد بني مناصر رائعة جدا، لقد أحرقناها كلها، أه أيتها الحرب كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلج فماتوا هناك من الجوع والبرد وليس في جيشنا سوى خمسة من القتلى وأربعين من الجرحى..."²⁷.

وكان إسرار السكان على التمسك بأراضيهم، يشكل عائقا أمام السلطات الاستعمارية التي كانت تريد المزيد من الأراضي. وكان الضباط الكبار يتسابقون للوصول إلى أهدافهم المقررة، وذلك باستعمال مكثف وأعمى لعملية الإبادة الجماعية للسكان. ويكفي للتدليل على ما نقوله، إننا نورد فيما يأتي اعترافات الجنرال "كافينييك" (Cavaignac) حول ما فعله

لإبادة قبيلة بني صبيح سنة 1844، حيث يقول: "لقد تولى الأجناد جمع كميات هائلة من أنواع الحطب ثم كدسوها عند مدخل المغارة التي حملنا قبيلة أولاد صبيح على اللجوء إليها بكل ما تملك من متاع وحيوانات وفي المساء أضرمت النيران وأخذت كل التدابير كي لا يتمكن أي كان من الخروج منها حيا"²⁸.

وبالنسبة لبقايا قبيلة بني صبيح الذين نجوا من فرن كافينياك بسبب وجودهم خارج أراضي القبيلة، فإن العقيد كانروبار (Canrobert) لم يدخر أي جهد للبحث عنهم، ولما تنسى له جمعهم بعد حوالي عام من حرق أهاليهم، قادهم مقيدون إلى مغارة ثانية ثم أمر ببناء جميع مخارجهم ليحجز منها على حد تعبيره "مقبرة واسعة لإيواء جثث أولئك المنزمتين. ولم يزل أحد إلى حل تلك المغارة، ولا يعرف أحد غيري أنها تضم تحت ركامها خمسمائة من الأشرار الذين لن يقوموا بعد ذلك بدمج الفرنسيين"²⁹، وفي تعليقه على هذه الجريمة قال "برارد": "لقد ظلت تلك المقبرة مغلقة وبداخلها جثث رجال ونساء وأطفال وقطعان تتآكل أويأكلها التراب..."³⁰.

وفي الحقيقة أن عملية القمع والإبادة الجماعية والتدمير، لم يكن سببها المقاومة الريفية، بقدر ما هي رغبة "مضمرة" في الفعل الاستعماري، لأنه لا يمكن قيام الكيان الاستعماري الاستيطاني بمعزل عن هذه الأعمال الوحشية والبربرية³¹؛ فالاستيلاء على الأرض وإقامة القرى الاستيطانية، لا يمكن أن يتحقق بدون تعميم الإبادة المستمرة، لأن إضعاف السكان ضعفا مطلقا يساوي بالدرجة الأولى تقوية المشروع الاستيطاني في الجزائر.

ويمكننا أن نقيم الدليل على ذلك، أن هذه الأساليب الوحشية ازدادت وحشية وبشدة فائقة بعد ضعف مقاومة الأمير عبد القادر. ومثال على ذلك القمع الوحشي الذي صاحب القضاء على ثورة بومعزة، والمجزرة الرهيبة التي قام بها "بيليسي" (Pelissier)، ضد سكان أولاد رباح بالظهرة في شهر جوان من عام 1845، ذلك أن جماعة منهم وعددهم أكثر من 500 شخص اعتصموا في المغارات الجبلية فرارا من التنكيل والتقتيل ورفضوا الاستسلام، فقام "بيليسي" الذي كان يلاحقهم باستعمال النيران في مداخل المغارات حتى يمنعهم من الخروج والإفلات، فماتوا جميعا من جراء الاحتراق بالنيران، والاختناق بالدخان³².

وقد بين ذلك الأسلوب "توكفيل" في تقرير له سنة 1841، حيث يقول: "قلت ذلك مرارا، وأكرره مرة أخرى، إنه ما دمنا لم نشكل تجمعا بشريا أوروبيا في الجزائر، فلا يمكننا أن

تمكث ونستقر في شمال إفريقية ولذا يجب أن يسير الاستعمار والاستيطان جنبا إلى جنب، إذا أمكن ذلك³³.

ويضيف الكاتب نفسه، وهو يتحدث عن الوسائل التي يمكن استخدامها في إخضاع القبائل الجزائرية، فيقول: "يجب أن ندمر تجارتهم، وأن نمنع عنهم كل المبادلات التجارية، وبعد ذلك تأتي الوسيلة الثانية وهي تخريب البلاد. وفي اعتقادنا أن الحرب ضرورية في تدمير البلاد سواء بإتلاف المحاصيل في أوقات الحصاد، أو في كل الأوقات التي تتطلب الغارات المباشرة والسريعة من أجل اختطاف العباد ونهب قطعان الغنم والبقر"³⁴.

وهكذا، يظهر جليا أن خطاب "توكفيل" كان يتماشى مع خطاب بناء الاستعمار، فهو في الختام يطمئن قادة فرنسا على أن تلك الأساليب والمعارات العسكرية تعد مفخرة للدولة الفرنسية، ويتعبّر، وهو ينصح قادة العنف والتقتيل: "ألا تشغلوا بأجسادكم الشخصية، وأن يؤدي كل واحد منكم واجبه بإخلاص لبلاده ووطنه(...). إن فرصة الظهور لكل واحد منكم تكمن في القيام بأعمال وحشية ودموية"³⁵.

كان تشجيع تلك الأعمال الشنيعة وسيلة لقادة الاحتلال أن يشركوا الجنود في تلك الجرائم، وهذا ما وقع أثناء الحصار الذي ضرب على واحة الزعاطشة في شهر نوفمبر 1849، حيث أعطيت التعليمات والأوامر للجنود بإبادة كل الواحة، ومن قتل جميع الأحياء من أطفال ونساء وشيوخ وقطع كل الأشجار بما فيها النخيل مصدر رزق السكان، وتخريب كل المنازل وحرقها إلى غير ذلك من المناظر التي يندى لها الجبين ويترهق القلم عن ذكرها³⁶.

وهكذا، وبعد أن تأكد القائد هيربيون (Herbillon) أنه لم يبق في الزعاطشة حي من البشر ولا حية من الشجر، أقام على باب معسكره مقصلة رفع عليها ثلاث رؤوس: رأس الشيخ بوزيان ورأس ابنه الشاب ورأس شيخ آخر طالما حارب الفرنسيين منذ عام 1833، وهو الحاج موسى الدرقاوي المعروف ببوحارة³⁷، وقد افتخر بول أزان بهذه الأعمال الوحشية التي في نظره قد أنتجت "التهادة" في المنطقة³⁸.

ويتحدث شهود عيان عن فضاة الجنود الفرنسيين، حيث يذكر أبو القاسم سعد الله الذي درس هذه الفترة، أن الجنود كانوا يعيشون بالضعفاء وبكل من وجدوا فيه بقية روح. فهذه امرأة طريجة عبثوا بقطع حلمة ثديها وهي لا تطلب سوى الإجهاض عليها لتخليصها من

العذاب، وهذا طفل حملوه من رجله ثم ضربوا رأسه على الحائط ليهشمه وغيرها من الأحداث الشنيعة التي لا يمكن وصفها³⁹.

أما مناطق الأوراس، فقد لقيت مصيرا كمصير الزعاطشة منذ مطلع الخمسينيات، وعلى يد كانروبار (Canrobert) الذي اتبع أسلوب الأرض المحروقة، حيث أحرق عشرات القرى وقطع آلاف الأشجار من التين والزيتون، أملا في الوصول إلى نتيجة إيجابية، وهي إرغام السكان على الخضوع للسيطرة الفرنسية. وكان ذلك درسا للتهدة التي أعطاها "كانروبار" إلى سكان الأوراس والتي استحق عليه رتبة جنرال⁴⁰.

وكان شعار الجند العنف والقسوة والتقتيل، والتنكيل بالسكان، فقد ذكر "ديريسون" (Dherisson) في أثناء احتلال بلاد القبائل سنة 1857، أن أذان السكان كانت تساوي 10 فرنكات للزوج، وكانت نساؤهم فريسات مثل الرجال سهلة المنال، وغير ذلك من الأعمال الفضيحة⁴¹.

ولا شك أن من أغراض تلك الإبادات والعمليات التخريبية، الانتفاع المالي الذي تزده العقوبات الجماعية. يقول "منتانيك": "إن جميع السكان الذين يرفضون شروطنا يعاقبون باكتساح أراضيهم ونهب كل ممتلكاتهم، ويتعرضون للقتل بدون تمييز بين الذكور والإناث، وبين الصغار والكبار"⁴².

ويضيف مينا المنافع المالية الناتجة عن الحملات العسكرية، فيقول: "ماذا سنفعل بالنساء اللواتي نقوم باختطافهن؟ نحتفظ ببعضهن كرهائن ونستبدل الأخريات بالخيول، وما تبقى منهن نبيعه بالمزايدة مثل الدواب"⁴³.

إن هذه العمليات الإجرامية والتدميرية تطلبت جهودا عسكرية عظيمة وأموالا طائلة. ولكن كل هذا كان على حساب الجزائريين الذين صودرت أملاكهم ونهبت ثرواتهم. وهذا ما توضحه رسالة نابليون الثالث إلى ماكماهون (Mac-Mahon) في سنة 1865، حيث يقول: "لقد استحوذت فرنسا على الجزائر منذ خمس وثلاثين سنة: فمن الضروري أن تكون نتيجة احتلالها لهذا البلد ذات فائدة من حيث مضاعفة قوتها من الآن فصاعدا، ولا سببا لضعفها"⁴⁴.

كانت فرنسا في حاجة إلى المزيد من الجنود قصد تنفيذ مخططاتها الاستعمارية التوسعية في الجزائر، ولهذا لم تكتف بقوتها العددية، بل راحت تستعين بالجنودين أواخرين من مختلف الجنسيات الأوروبية، وكذلك بالجنودين الجزائريين لتأسيس الجيش "الإفريقي"⁴⁵.

العنف الكولونيالي والمقاومة في الجزائر خلال القرن 19م أ.د. محمد دادة

كان عدد هؤلاء المجندين الجزائريين في سنة 1844 حوالي 9654 مقاتلا من المجموع العام الذي بلغ 80862 جنديا، وفي سنة 1859 بلغ عددهم 13259 من مجموع 83870 جنديا (أي بنسبة 16%). أما الجيش الفرنسي، فكان عدده بالتقريب 100 ألف جندي فيما بين 1846 و1847، وأكثر من 80 ألف جندي في سنتي 1857 و1864، وأكثر من 70 ألف في أواخر سنة 1870.⁴⁶

ونلاحظ أن العدد التقريبي كان يتغير وفق الظروف الحربية واشتداد المقاومة الجزائرية. وحسب واري (Warnier)، فإن الجندي كان يكلف حوالي 1000 فرنك في السنة، وهذا ما كلف خزانة الدولة الفرنسية أكثر من ملياريين ومائتي مليون فرنك⁴⁷.

تلك هي جوانب من الجهد الحربي الفرنسي وأساليبه في الإبادة، التي سلطت على الجماعات السكانية المحلية، وكان الهدف منها:

أولاً: حرمان السكان من كل الموارد، وإجبارهم بالقوة على ترك أراضيهم، مثلما فعل الأمريكيون في ذلك الوقت مع الهنود.

ثانياً: القضاء على إمكانيات المقاومة الشعبية التي شددت على ضرورة التمسك بالأرض، وذلك بالقضاء على العباد أنفسهم والانتفاع من عمليات التخريب والتدمير.

ثالثاً: تهينة الجوامل الملائم لإقامة الاستيطان البشري الأوربي، وذلك على حساب المجتمع المغلوب على أمره.

الهوامش

1- Cite par GIRARDET (R): L'idée coloniale en France de 1871 à 1962, Paris, La table ronde, 1972, P 262.

2- من المعروف أن الفرنسيين كانوا يطمعون في خزانة الجزائر التي سمعوا بثرائها، وربما كان ذلك هو الذي دفع "أميريت" إلى إجراء دراسة ربط فيها قضية الخزانة بالاحتلال الفرنسي في مقاله الذي وضع له هذا العنوان: "سبب حملة الجزائر: خزانة القصبه" أنظر:

M. Emerit: « Une cause de l'expédition d'Alger, le trésor de la Casbah », in B.S.H.M.C, 1954, PP 171-188

اختلف الكتاب حول تحديد مقدار ما تحويه الخزانة، ولكن الإدارة الفرنسية قدرت رسمياً قيمة الخزانة: (48684.527 ف)، في حين أن مصادر أخرى قدرتها بـ 55.684.527 ف، وكانت موزعة على النحو التالي:

ذهب وفضة وجواهر: 48.684.527 ف

صوف وبضائع أخرى: 3000.000 ف

قيمة مدافع أرسلت إلى فرنسا: 4000.000 ف

- أنظر: ناصر الدين سعيدي: الخزينة الجزائرية، (1800-1830)، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 03، 1975 ص ص 23-29 وكذلك، أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1992، ص 22.
- 3- حمدان خوجة: المرأة، تعريب وتحقيق محمد العربي الزيري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص ص 279-280.
- يفق "سيمون بفايفر" الذي كان معاصرا للأحداث، مع حمدان خوجة في المعلومات الخاصة بعمليات النهب والتخريب التي لحقت بالمدينة أثناء احتلالها. أنظر: سيمون بفايفر: مذكرات أوشة تاريخية عن الجزائر، ترجمة أبو العبد دودو، الجزائر، ش، و، ن، ت، 1974، ص ص 104-110.
- 4-P. Azan: Conquête et pacification de l'Algérie, Paris, Impr de France, 1931, PP 19-20.
- 5-C.A-Rozet, Voyage dans la régence d'Alger, ou description du pays occupé par l'armée Française en Afrique, Paris, Arthus-Bertrand, T1, 1883, P 120.
- 6-Ibid, T III, P 264.
- 7-Ibid, P 204.
- 8-Ibid, P 214.
- 9-Ibid, PP 214-215.
- 10-Pellissier de reynand, Annales Algérienne, Paris, Dumaine, Alger, Bastide, 1854, T1, PP 245-248.
- 11-تأسست اللجنة الإفريقية بتاريخ 7 جويلية 1833، ووصلت اللجنة إلى الجزائر بتاريخ 2 سبتمبر 1833. وكان رئيسها الجنرال "بوني"، وتنقلت اللجنة في مدينة الجزائر وضواحيها، كما زارت عدة مدن مثل عنابة ووهران وأرزويو بجاية. وكان هدف اللجنة جمع المعلومات التي تثير الحكومة الفرنسية عن حالة الجزائر الحاضرة وعن مستقبلها وبعد عودتها إلى فرنسا في 9 نوفمبر 1833، وضعت تقاريرها إلى حكومتها مضميفة إليها اقتراحات حول مستقبل فرنسا في الجزائر، وأهم الاقتراحات هو أن اللجنة رأت ضرورة الاحتفاظ بالجزائر التي أطلقت عليها اسم "الممتلكات الفرنسية في إفريقيا".
- 12-Procès- Verbaux et rapports de la commission nommée par le Roi le 7 Juillet 1833, Paris, impr Royale, 1834, T1, PP 333 Seq.
- 13-للمزيد من التفاصيل حول زعماء المقاومة الجزائرية خلال هذه الفترة، أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق.
- 14-Cité par Prenant, I Noushi, Lacoste, l'Algérie Passé et présent, Paris, Ed Sociales, 1960, P 264.
- 15-Ibid, P 264
- 16-A. Bernard, l'Algérie, Paris, lib Felix, Alcan, 1929, P 208.
- 17-رغم ذلك لم يتردد شارل أنطري جوليان، في سياق كتابته عن شخصية وأعمال ييجوفي القول، إن "أثاره العسكرية تشكل عنوانا حقيقيا للمجد" أنظر دراسته في المؤلف الجماعي:
- C.H.A Julien, les Techniciens de la colonisation (XIX-XX e siècle) , Paris, P.U.F, 1946, PP 55-74.
- 18-P.Azan, l'Emir Abd-El - Kader(1808-1883), Paris , Hachette, 1925 P 18.
- 19-Ibid, P 64.
- 20-Ibid, P 86
- 21-Prenant, Noushi, Lacoste, op. cit, P 302.
- 22-Saint - Arnaud ; letres du maréchal de Saint- Arnaud (1832-1854) , Paris, 1858, P 313.
- 23-P.Azan: L'emir AEK, op , cit, P. 17.
- كان هذا القائد الفرنسي عندما يحتاجه القلق يلجأ إلى "قطع رؤوس العرب، لاعتقاده بأن العرب بلدا من خمس عشرة سنة يجب أن يقتلوا، أما النساء والأطفال، فيسحبون إلى جزر المركيز (مسعمرة فرنسية تقع شرقي أستراليا) أو غيرها. أنظر:
- P.L. Berard: les deux villes de Ténès et Boumaza, Alger , Bastide, 1864, P 165.
- 24-P-Azan: L'Emir AEK, op, cit, PP 17-18.
- 25-Saint- Arnaud: op, cit, T1, P 379.
- 26-Ibid, T1, P 390.
- 27-Ibid, PP 391-392.
- 28-P-L, Berard , op, cit, P 166.

29-Ibid, P.166.

30-Ibid, P.166.

31-يقارن أبو القاسم سعد الله بين غزوات التار وغزوات الفرنسيين للجزائر، فيقول: " ويبدو أن المؤرخين السابقين لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذه المقارنة ماداموا يعرفون مسبقا أن التار شعب متوحش وأن الفرنسيين شعب متحضر، وهم متأكدون مسبقا أيضا أن الشعب المتوحش لا يقوم إلا بالتخريب وأن الشعب المتحضر لا يقوم إلا بالبناء (...) ونحن أيضا لن يكون هدفنا عقد هذه المقارنة، ولكن إذا وجد القراء أوجه شبه بين ما حدث هنا وهناك فرجو ألا نقشع جلودهم أو تنصفر وجوههم لأن في مسيرة التاريخ كثيرا من التناقض، بل أن البعض يجعل التاريخ كله عبارة عن عملية ديناميكية للمتناقضات (...) يا الله، هل هناك حد للحقد والتعصب والجشع وحب التسلط؟ ومع ذلك فلم يبق التار إلا بضعة أيام، أما الفرنسيون فقد بقوا أكثر من قرن، أنظر أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص ص 15-16.

32-Derrecagaix: le général Pelissier et les Asphyxiés des grottes du Dahra, in R.A. 1911 PP 456-460.

33-A. De Tocqueville ; travail sur l'Algérie (1841), de la colonisation en Algérie, Bruxelles, Ed, complexe, 1988, P 94.

34-Ibid, PP 62-63.

35-Ibid, P 93.

36-P.Azan: conquête , op , cit, PP 410-411

تأكد ممارسة ييجو في الميدان على هذا النموذج، حيث كتب في أحد رسائله، بقوله: " نحن لا نقوم بحرب جيوش فقط، لكن لمصلح فئتنا هزمنا لنيف الحارين سيطرنا على مراكز السكان، التجارة، الصناعة، ... للإطلاع على هذا النموذج أنظر: CH.A.Julien, les techniciens, op, cit, PP 65-66.

37-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 355

Herbillon: Quelques pages d'un vieux cahiers, souvenirs du général Herbillon (1794-1866), publié par son petit fils- paris, Berger- Levraut, 1928, PP 154-155.

38-P-Azan: conquête, op, cit, P 211.

39-أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية المرجع السابق، ص 356.

40-Ch.A. Julien: histoire de l'Algérie Contemporaine , Paris, P.U.F, 1964, PP 385-387.

41-Herisson ; la chasse à l'homme, Guerre d'Algérie -Paris, Ollendorf 1891, PP 349-350.

42-Montagnac ; lettres d'un soldat neuf, années de compagnie en Afrique, paris, Plon , 1885, P 334.

43-Ibid, P 335.

44-Napoléon III: lettre au duc de Magenta (Mac- Mahon), 20 Juin 1865 in lettre sur la politique de la France en Algérie, Paris, impr impériale 1865, PP 4-5.

45-لزويد من المعلومات حول الجيش الإفريقي في الجزائر، أنظر: هيدية عميراي: جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر، مجلة سرتا، العدد 12، 1999، ص ص 55 - 60.

46-A- Prenant, A- Noushi, Y- Lacoste ; op.cit, P 327.

47-A.H. Warnier: l'Algérie devant l'empereur , Paris, Challamel, 1865, P 8.